عائشة

يتراءى لي وأنا أود أن أخطط صورة من أسرة أتيح لي أن عاشرتها ولازمتها أكثر من نصف سنة، أن صورتي عنها لا تهم قارئا ولا يستفيد منها إلا فرد هو أنا حيث ستلابسني صورة تلك المرأة كلما عاودت تلاوة ما أخطط الآن عنها. في رأيي إنه ليكفي أن يشعر المرء لكى يتناول القلم فيخطط إثر ذلك الشعور دون أي اعتبار آخر مهما تصور قيمته ومهما تراءت من منفعة وراء ذلك الاعتبار فلا ينبغي في هذه المواضيع أن نتبع قلوبنا وإحساساتها الدفينة وأن نعرض عن اعتبارات الجماعة التي لها قيمتها الوقتية، ولا صلة لها بتاتا بهذه الروح التي هى نحن. إذن، سأقص حالة هذه المرأة دون أن أعتبر أى اعتبار نحو الجماعة التي ربما في يوم ما تتناول صورتي عنها بشىء من النقد وشىء من الاستهزاء قد يكونان شديدين قويين لهما أثرهما على نفسي كلما اندمجت في الجماعة المحيطة بنا وتناسيت مصدر إحساسي الحقيقي بالحياة، ولهما ابتسامة مني كلما أدركت أني عندما حاولت رسم هذه الصورة لم أكن لأبالي بأي جماعة من النقاد بل ولا من القراء، وحسبي أن تكون كتابتي صدى لإحساسي واضحة جلية أمام عيني فاترة مملة أمام كل الأفراد إذ لست أكتب لنفسي وكفى. على هذ الاعتقاد وهذه الفكرة سأتناول حياة المرأة عائشة بالتحليل وأوضح ما سيتراءى لي فيها من معاني وصور في هدوئها واضطرابها، في فرحها وألمها، في أية حالة يشعر بها المرء العادي ولا نلتفت إلى صداها في أعماق نفسه لأن مواهبه ليست بالمعمقة تعميقا يتيح لنا أن نرى صورتها ... حاجزا من حواجز الحياة كما شاهدت ذلك عند هذه المرأة. سأكتب ما أتيح لي أن أكتبه الآن عن أحوالها الغريبة كامرأة وكشرقية لم تنل من التعليم شيئا ولا من الثقافة حظا وسأترك القلم والقرطاس إلى حين آخر قد تتجدد اجتماعاتي بها وقد لا تتجدد وإنما تتجدد صورتها الغريبة في نفسي

بتفكير عميق نحوها واستعراض طويل لصورها الماضية، وأحوالها التي استرعت أفكاري وملاحظاتي، تلك الأفكار والملاحظات التي أشعر أن من الواجب أن أسجلها وأتركها بين طيات أوراقي إلى حين أستطيع تصور انتهائه بالضبط، فلعل كتابتنا العربية ما زالت بعيدة كل البعد أن تتطرق إلى مثل هذه المواضيع التي تكاد تكون دون مظهر مادي صورى لها وإنما هى خيال وصورة من انفعال يلامس المرء حينا من الزمان فكتابتنا ما زالت استقراطية لا تهتم إلا بمقدار بعاطفة المرء الدفينة وملاحظاته الدقيقة. لست أتهم اللغة بهذه التهمة، وإنما أتهم الكتاب إذ أعتقد وأعتبر أن اللغة أداة تعبر عن الفكر الإنساني وأن في استطاعة الكاتب أن يجول بها ما جال فيه فكره دون حذر ولا وجل. فحديثي عن هذه المرأة ليس عبارة عن قصة خيالية لحوادث متتابعة عن الحب والهيام ولا هى مآس من مآسي الحياة تثير في النفس صورة تحفزها إلى تخطيط سطور وإنما هى ملاحظات أبعد ما تكون عن القصة في شكلها المعهود وصورتها المتداولة. لم تكن السيدة عائشة حبيبتنا بالمعنى المتعارف فتبادلت معها بالأخص كؤوس الغرام وتناجينا في خواطرنا فعرفتها وعرفتني فخطر لي أن أسجل قصتي معها، بل لقد كانت خادمة تناهز سن الخمسين لا يتمكن المرء من القيام بدور غرامي معها خصوصا إذا كان شابا يتصابى ويستحق من فتوتها كل معاني الوجد ودقائق الخيال. لقد كانت عجوزا وسحنتها تعطي للمرء دليلا على أن جمالها لم يكن يأخذ بلب الإنسان فنتناسى بلحظاتها ورشاقتها أى اعتبار مصدره اصطلاح الجماعة العقلي؛ فوجهها يكاد أن يكون دون جاذبية إلا جاذبية اللحم والغريزة وعيناها لا أثر للغنج فيهما. أما لحمها فأبيض ناصع تشوب جماله برودة دمشق ورطوبة حيطانها، أما قوامها فقوام امرأة لا قيمة لها في عين الرجل الذي يريد خادمة تقوم بنصيبها من العمل الميكانيكي لا أقل ولا أكثر أو أن يكون زوجا له اتجاهات أخرى في الحياة لا تهمه حركة من حركات النساء بقدر ما يهمه أن يكون مستريحا في بيته. أما حديثها فحديث امرأة عادية لا دلال ولا تيه في نبراتها، ولا خصومة أو ليونة في صوتها (

وإنما هى امرأة الشارع) تتحدث إليك وتتحدث إليها دون أن تشعر بسمو في خيالك ولا خفقان في ثنايا ضلوعك. وليست هى بالمتعلمة فتجالس شابا ما زال يشعر بحرارة العلم والمعرفة فيستأنس في حديثها ومذاكراتها العلمية وحظها من الجمال وحظها من الرشاقة، بل هى امرأة لا تعرف كم في الساعة على الضبط ولا تستطيع أن تميز الحروف العربية من الحروف الافرنجية. هى امرأة شرقية تمثل العهد الماضي حيث كان المرء يتحاشى فيه أن يذكر اسم عائلته أو اسما من أسماء ذويه النساء حياء وحيث كان هم المرأة الوحيد أن تكون حاضنة لأولادها كدجاجة في تبنها، بل إن الدجاجة لتسعى وراء إطعام أولادها، أما المرأة فهى تلدهم دون أن تدري كيف تهيئ لهم طعام يوم.

عائشة خادمتنا على هذه الصورة كانت معنا وقضينا معها نصف سنة أو أكثر، فما معنى إذن أن أتحدث إلى نفسي أولا وإلى القارئ ثانيا عن هذه المرأة وهى خالية من كل ما يبعث في النفس مما اعتاد الكتاب والقراء أن يتناولوه (الأولون فيما يكتبون والآخرون فيما يقرأون) نحو المرأة ونحو جمالها. هكذا يتخيل المرء عائشة في أول وهلة وهكذا خيلت لي في أيامها الأولى فنبذتها من مذكراتي قائلا إنها امرأة عادية ولا معنى للكتابة فيها وما طال بنا المقام وتشابكت معها في الحديث حيث خيل لي أنها امرأة غريبة كل الغرابة وأنها تجمع من المتناقضات ما يقف أمامه المرء دهشا حائر الفكر في إدراك سر هذا التناقض. فهى كفكر مجرد من الاصطلاحات العلمية امرأة تغور في أعماق حوافز الحياة وتتسلل بنفسها إلى الاستهزاء والسخرية بكل ما حولها. هى كامرأة خالية من كل معاني الأنوثة ورهبتها التي تشعر بها عادة النساء فتزيد عن قدسية تكاد أن تكون دون ضمير، دون إحساس باطني، هى كامرأة جاهلة لا تتصل بمذاهب الحياة ولم تتعرف إلى آراء المفكرين الذين لا يندفعون مع تيار الحياة اندفاعا مجردا عن أية صبغة عقلية تكاد أن تكون ابقورية بالمعنى المتعارف لدى بسطاء الأفراد ابقورية تتعشق وتتفلسف بآراء بسيطة عميقة في الحياة وأسسها وبواعثها. تستهزئ بكل الأفراد وتسخر من كل الآراء

وتعارض كل ما وافقت عليه الجماعة وهى في ذلك الاستهزاء وتلك السخرية المعارضة تكاد أن تكون باحثة نفسية بمقياس غاية البعد عن عقل امرأة بسيطة جاهلة مقاييس تغور بها إلى أعماق ما في الوجود من بواعث وأوهام وخيالات لتريك وأنت تجادلها أية قيمة لاصطلاحات علم الأخلاق وآداب السلوك. دينها الإسلام لكن من العبث أن تطالبها باتباع قاعدة من قواعده إذ هى لا ترى كبير فائدة ولا أية قيمة في اتباع أوامر الدين، فإنها تستهزئ بها وتداعب المتدينين بمرارة زائدة وهم يستوحون في اتباع أديانهم كل سمو وكل عزة، يظهر أن ما تتعرض في حديثها عن المشايخ الذين أصبحوا في العهد الأخير كرجال كهنوت للدين الإسلامي.

قلت لها وأنا أحلق لحيتي: إن الدين ينافي حلق اللحية.

فأجابتني في الحين بصيغة الاستهزاء: وهل من وظيفة الدين أن يترك الوجوه بشعة بلحا مكتظة؟

فقلت مع نفسي: يا له من فكر اغريقي يقدم الجمال على العبادة.

كان يزورنا من الآونة والأخرى مغربي، ورغم أنه لم يتقدم في السن كثيرا فإنه كان يضع (لفة) على رأسه وكانت تستثقل زيارته إلينا، وفي يوم سألتها عن السر في نفورها منه مع وداعته، قالت بحدة: تلك اللفة هى السبب.

- ولماذا؟ أليست علامة على تقوى وطهارة، هكذا يزعم كثير من الأفراد بهذه الديار.

- ليس شيء من ذلك فالطهارة في القلب وما اللغة إلا صورة عن خداع يتخذه هؤلاء المشايخ لأغراض في نفوسهم.

وابتسمت وسكتت، ففهمت ما ذا تقصد. زارتها في يوم بنت من بناتها وهى متحجبة، وبعد ذهابها سألتها: لماذا تتحجب الشاميات ما دمن يتحدثن إلى الرجال، فأجابتني:

- لست أدري هل الرجال سيخطفون لهن من وجوههن جمالهن أو بالأحرى عفتهن؛ إن المرأة التي لا تسمح للرجل برؤية وجهها هى التي تريد ما يتنافى وعفتها.